قصة

سيدنا عيسى عليه السلام

قصة سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام

١ـ قصة خارقة للعادة

ويجيء دور سيدنا عيسى ، وهو آخر الرسل ، قبل نبينا محمد رسول الله ﷺ وهي قصة تجلت فيها إرادة الله القاهرة ، وقدرة الله المطلقة وحكمة الله الدقيقة ، فأمره كله خارق للعادة ، وولادته خارقة للعادة ، حارت فيها الألباب ، ونُسخت فيها القوانين الطبيعة ، وشقَّ الإيمان بها والتصديق لها على من آمن بالقوانين الطبيعية ، كالإله لا يزول ولا يحول وآمن بالتجربة والمشاهدة ، وبأحكام الطب والطبيعة ، كناموس لا يتغير ولا يتبدل ، وجهل قدرة الله التي أحاطت بكل شيء ، وغلبت على كل شيء ، وإرادته التي لا يحول دونها شيء : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

[يس:٨٢]

وهان هذا الإيمان على من آمن بالله كإله قادر مريد ، خالق صانع ، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٤] .

وآمن بخلق آدم من ماء وطين ، ومن غير أم وأب ، وولادةٌ من أم من غير أب أهون وأيسر للتصديق من ولادة من غير أم وأب ، لذلك يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ .

[آل عمران:٥٩]

٢ـ أمر كله عجب

وأمر سيدنا عيسى كله عجب ، وقد كانت ولادته في عصر بلغت فيه « يونان » أوجها في العلوم العقلية والرياضية ، وكانت للطب دولة وصولة .

٣ـ خضوع اليهود للأسباب الظاهرة

وخضع اليهود ـ وهم أمة كثر فيهم الأنبياء ـ للعلوم السائدة في عصرهم ، واشتهر فيهم إنكار الروح وما يتصل بها ، واعتادوا أن يفسروا كل ما يرونه تفسيرًا ماديًا ، فلا وجود لشيء عندهم ولا إمكان لحادث إلا بالسبب والعلة ، فكانت المعجزات التي أكرم الله بها سيدنا عيسى علاجًا للعقل الماديّ الضيق ، وحاجة العصر ونداء الزمان .

وأمعن اليهود في الوقوف عند الظاهر والتمسك بالقشور دون اللباب ، والتشبّث بالمظاهر دون الحقيقة ، وغلوًا في تقديس العنصر والدم ، وفي حب المال والمادة ، وانهمكوا في الحياة انهماكًا زائدًا ، وقست قلوبهم ، وجفت طبائعهم ، فلا يرقون للضعيف ، ولا يعطفون على الفقير ، ويعاملون من لا يجري في عروقه الدم الإسرائيلي معاملة الحيوانات والكلاب ، أو الجمادات التي لا روح فيها ، ويخضعون للأقوياء الأغنياء ، ويتجبّرون على الصغار الفقراء ، ويقسون عند القدرة ، ويلينون عند العجز ، قد ولّدت فيهم حياة الذل والعبودية التي عاشوها في الحكم الروماني الذي دام مدة طويلة في سوريا وفلسطين ، النفاق والخنوع والتحيّل والدهاء ، واللجوء إلى المؤامرة والسرية .

***

٤ـ استخفاف وتمرّد

وولد فيهم الاستخفاف بالأنبياء والاجتراء عليهم، حتى بالقتل، والتعامل بالربا، والعبث بالتعاليم الدينية، الغلظة والجفاف، وضعف العاطفة الإنسانية، وتجردت قلوب كثير منهم من حبّ الله الخالص، والرحمة على الإنسان ــ مهما كان أصله وفصله ــ واحترام الإنسانية، وكادوا ينسون معاني المؤاساة والمساواة والبرّ والكرم، وكانوا يؤمنون بالنبوءات والرسالات، وقد كثرت فيهم الأنبياء، وزخرت صحفهم بأخبارهم، ولكنهم قد أصبحوا في الزمن الأخير لا يؤمنون إلا بما وافق هواهم، وأيّدهم في سيرتهم وأخلاقهم، أما من انتقدهم وحاسبهم ودعاهم إلى الدين الصحيح، والحق الصريح، وإصلاح الحال، عادوه وحاربوه، وكانت عندهم جراءة على البهت والافتراء، وكتمان الحق، وشهادة الزور.

٥ـ نعمة الله على بني إسرائيل

وكانوا أمة تمتاز عن الأمم المعاصرة لهم، بعقيدة التوحيد، وذلك سرّ تفضيلهم على غيرهم حينئذٍ، وقد قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧].

***

٦ـ نكران للجميل

ولكن تسربت إليهم بحكم الاختلاط ، ومجاورة الشعوب المشركة الوثنية ، وبطول العهد بتعاليم الأنبياء ، عقائد زائفة ، وعادات جاهلية ، وقد عبدوا العجل في مصر ، وبالغوا في تقديس عُزير وتعظيمه ، حتى تخطُّوا به حدود البشرية ، وبلغت بهم الوقاحة إلى أن نسبوا بعض أعمال الشرك والوثنية ، وأعمال السحر والكفر ، والأفعال الشنيعة ، إلى بعض الأنبياء ولم يتّقوا الله فيهم .

٧ـ زهو وادلال

وكانوا رغم كل ذلك شديدي الإدلال بالنسب ، شديدي الاعتماد على الأماني والأحلام ، يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » ، ويقولون : ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [آل عمران:٢٤] .

٨ـ ولادة المسيح تتحدى المحسوس المعروف

وكانت ولادة المسيح وحياته ودعوته ومعيشته تحديًا لكل ذلك ، تحديًا للمحسوس المقرّر ، تحديًا للأعراف الشائعة ، والعادات المتبعة ، والقوانين المرسومة ، والمثل العليا التي يؤمن بها اليهود ، والغايات التي يتنافسون فيها ، ويتقاتلون عليها ، فولد من طريقة غير مألوفة ، وكلَّم الناس في المهد ، ونشأ في أحضان أم فقيرة متبتلة ، وعاش في جوّ مليء بالطعن والقدح ، بعيد عن مظاهر العظمة والغنى ، يجالس الفقراء ، ويؤاكلهم ، ويحنو عليهم ، ويواسي الضعفاء والغرباء ، ولا يفرق بين فقير وغني ، وحاكم ومحكوم ، وشريف ووضيع .

٩ـ معجزات المسيح

وأكرمه الله بالنبوة والوحي ، وآتاه الإنجيل ، وأيّده بروح القدس ، والمعجزات الباهرة ، يشفي الله به المرضى الذين عجز عن مداواتهم الأطباء ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله ، ويخلق للناس من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله ، وينبئ بما يأكله الناس ويدَّخرونه في بيوتهم .

فيعيد بكل ذلك الثقة بما جاء في التوراة بها ، ويكذب العبادة للحسّ والتجربة ، فقام الذين ينكرون سعة القدرة الإلهية ، وقوة الإرادة الربَّانية ، فقرَّروا أن لا جديد وأن لا مزيد فيما علموه وشاهدوه .

١٠ـ دعوته إلى الدين وتكذيبه اليهود

وكذَّب اليهود في كثير ممَّا تخّيلوه وغلوا فيه ، وحرَّموا ما أحلّه الله ، وأحلّوا ما حرّمه الله ، فقام يدعوهم إلى روح الدين ولبابه ، وأصله وحقيقته ، والحبّ لله حبًا يغلب على كل حبّ ، والرحمة على الإنسانية واحترامها ، والمواساة للفقراء ، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص ، ورفض كل ما دخل على دين الأنبياء من عادات جاهلية ، وعقائد باطلة .

١١ـ اليهود ينصبون له الحرب

وشق كل ذلك على اليهود ، ونصبوا له الحرب ، ورموه عن قوس واحدة ، ورشقوه بالتهم والقذائف ، وتناولوه بالسب القبيح والقول البذيء ، وتناولوا أمه مريم البتول بالقذف والطعن ، وعاكسوه وطاردوه ، وأهاجوا له الأوباش ، وسدوا في وجهه الطرق .

١٢ـ قصة عيسى في القرآن

ثم أرادوا قتله والتخلص منه ، فحماه الله وردّ كيدهم عليهم ، ورفعه إليه وكرَّمه ، اقرؤوا قصته في القرآن : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ

خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ .

[آل عمران:٤٥]

١٣ـ سيرته ودعوته في القرآن

واقرؤوا وصفه تعالى لسيرته ودعوته في قوله : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم:٣٠] .

١٤ـ صراع قديم

ووقع لسيدنا عيسى ما وقع للأنبياء قبله ، فابتعد عنه الرؤساء والزعماء ، وهجرة الأغنياء والأقوياء ، ورأوا في الإيمان به واتباعه غضاضةً وعيبًا ، وشق عليهم التنازل عما كانوا عليه من رياسة وزعامة وامتياز وسيادة ، وصدق قول الله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ:٣٤] .

١٥ـ إيمان عامة الناس وفقرائهم

ولما يئس عيسى منهم ، وشاهد فيهم العناد والكفر ، ورأى أنهم قد جحدوا بما جاء به من آيات ومعجزات باهرات استيقنتها أنفسهم ، واستصغروه لأنه لم يكن صاحب حول وطول ، أقبل على عامة الناس وفقرائهم ، وقد لانت قلوبهم ، وصفت نفوسهم ؛ لأنهم يأكلون بكدِّ يمينهم وعرق جسمهم ، لا يتفاخرون بنسب ، ولا يتطاولون بجاه ومنصب ، فآمنت

منهم طائفة ، فيها القصارون ، وفيها صيادو الأسماك ، وفيها أهل الحرف والمهن .

١٦ـ نحن أنصار الله

فآمنوا بالمسيح والتفوا حوله ووضعوا أيديهم في يده وقالوا : ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ .

يقول الله تعالى :

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٥٢] .

١٧ـ سياحة ودعوة

وكان سيدنا عيسى يقضي أكثر أوقاته في السياحة ، والانتقال من مكان إلى مكان ، يدعو بني إسرائيل إلى الله ويهدي خرافهم الضالة إلى ربها وسيّدها ، ويتفق له في هذه الجولات والرحلات اليسر والعسر ، والضيق والرخاء ، ويتحمل ذلك صابرًا ، ويقبل هذا شاكرًا ، ويصبر على الجوع ، ويجترئ بما يسد الرمق .

١٨ـ الحواريون يطلبون مائدة من السماء

أما الحواريون فلم يكونوا بمنزلة من الصبر والجلد والتقشف والزهادة ، وأصابهم شيء من ذلك ، فطلبوا من سيدنا عيسى أن يسأل الله أن ينزل لهم مائدةً من السماء يأكلون منها ، ويشبعون بعد جوع وينعمون بعد عناء .

١٩ـ سوء أدب

ولم يكونوا متأدبين في سؤالهم ، فقالوا : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ .

ولم يعجب عيسى سؤالهم ، وكره الأسلوب الذي خاطبوه به ، والأنبياء جميعًا يطالبون أممهم بالإيمان بالغيب ، ويكلفونها إياه ، وليست المعجزات مخاريق يسلى بها الأطفال ويلهى بها الأغمار ، إنما هي الآيات من الله يظهرها على أيدي أنبيائه حين يشاء ، وتقوم بها حجة الله على العباد ، فلا يمهلون بعد ظهورها وإنكارها .

٢٠ـ تحذير قومه من سوء العاقبة

لذلك خاف سيدنا عيسى عليهم ، وحذَّرهم من سوء العاقبة ، ونهاهم عن امتحان الله تعالى ، فهو أعلى وأجل من ذلك .

٢١ـ إلحاح وإصرار

ولكن الحواريين تشبثوا بسؤالهم ، وذكروا أنهم جادُّون في هذا السؤال ، لا يقصدون امتحانًا إنما يريدون اطمئنانًا ، وليكون ذلك ذكرى للأجيال القادمة ، وقصة تحكي وتروي على مر الأيام ، فتكون دليلًا على صدق هذا الدين ومنزلة المؤمنين الأولين والحواريين الصادقين .

***

٢٢ـ القرآن يحكي القصة

ودعوا القرآن يحكي هذه القصة :

﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة:١١٢] .

٢٣ـ اليهود يحاولون التخلص من سيدنا عيسى

وعيل صبر اليهود ، وفاضت كأس عدائهم وعنادهم ، فأرادوا التخلُّص من سيدنا عيسى ، فرفعوا قضيته إلى الحاكم الرومي وقالوا : إنه رجل ثائر فوضوي ، مرق من ديننا ، واستهوى شبابنا ، ففتنوا به ، وفرَّق أمرنا ، وسفه أحلامنا وشغل بالنا .

٢٣ـ أسلوب الناقمين والسياسيين

وهو خطر على الدولة ، لا يخضع لنظام ، ولا يتقيد بقانون ، ولا يعظم عظيمًا ، ولا يقدس قديمًا ، وهو رجل ثوري ، إذا لم يكف شره فإنه يتفاقم ، ولا تستصغر الشرارة مهما كانت تافهةً .

***

٢٥ـ مكر ودهاء

وكان كلامًا مملوءًا بالمكر والدهاء ، مصبوغًا بالصبغة السياسية ، وكانوا يعرفون أن الجانب الديني لا يثير الحكام ولا يهيجهم ، فقد كان من سياستهم ألَّا يدخلوا في أمور اليهود الدينية ، ولذلك خلطوا الكلام بالسياسة .

٢٦ـ مشكلة

وكان من الصعب أن يتحقق الحكام الأجانب المشركون حقيقة الأمر ، ويعرفوا أغراض اليهود ، وسبب عدائهم للمسيح وكانوا في شغل شاغل عن ذلك بالأمور الإدارية ، ولكن اشتد إلحاح اليهود ، وطال ترددهم إليهم ، فأرادوا التخلص من هذه القضية التي أصبحت حديث البلد .

٢٧ـ سيدنا المسيح في المحكمة

وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، وكان اليهود لا يعملون شيئًا يوم السبت ، وكان يوم عطلة كف عن العمل ، فكانوا حريصين كل الحرص على أن يصدر الحكم قبل أن تغرب شمس يوم الجمعة ، ويستريحوا من أمر المسيح ، فيناموا هادئي البال ، ويصبحوا ناعمي البال لا يزعجهم شيء .

وقد ضاق الحاكم بالقضية ذرعًا ، وليست له فيها رغبة ولا لأمته فيها مصلحة ، وقد احتشد اليهود لسماع الحكم ، وهم بين صائح وهاتف ، ومتندّر ومتهكّم ، والحاكم متضايق والوقت قصير ، والشمس قد مالت للغروب ، فأصدر الحكم عليه بالقتل صلبًا .

٢٨ـ القانون الجنائي في ذلك العصر

وكان القانون الجنائي في ذلك العصر يوجب أن يحمل المحكوم عليه بالشنق ، صليبه الذي يصلب عليه ، وكان المشنق بعيدًا كما هي العادة في البلادة المتمدنة ، وكان الجمع حاشدًا يتساقط بعضه على بعض ، وكان رجال الشرطة ــ وأكثرهم من الأجانب ــ مأمورين موظفين لا رغبة لهم في هذه القضية ، وكان الإسرائيليون أشباهًا عندهم يلتبس عليهم أمرهم ، فلا يميزون بينهم ، شأن الأجانب في نظر الأجانب ، وكان الوقت مساءً قد مدَّ الظلام رواقه ، وكان بعض اليهود المتحمسين السفهاء من الشباب ينهالون على السيد المسيح ، ويتدافعون عليه ، يسبونه ، ويعيرونه ، ويريدون إيذاءه وإهانته .

٢٩ـ عيسى يتحمل الأذى

وكان السيد المسيح لاغبًا ، قد أضناه الجهد ، وطول الوقوف في المحكمة وتحمّل الأذى ، وكان الصليب ثقيلًا ، وقد كلف حمله ، فكان لا يستطيع أن يسرع في المشي .

٣٠ـ تدبير إلهي

وهنا أمر الشرطي الموكل به شابًا إسرائيليًا بحمل العود ، وكان أشد زملائه حماسة وأكبرهم سفاهة ، وأحرصهم على إيذاء السيد المسيح ومبادرةً إليه ؛ حتى ينتهي الأمر سريعًا ، ويتخلص من هذه المسؤولية المرهقة .

***

٣١ـ ولكن شبه لهم

وهكذا وصل الموكب إلى باب المشنق ، فتقدم شرطة المشنق ، وتسلموا الأمر من الشرطة المدنيين ، ورأوا الشابَّ يحمل الصليب ، واختلط الحابل بالنابل ، وكثر الضجيج ، فأخذوا بيد الشاب الحامل للصليب ، وهم لا يشكون في أنه المحكوم عليه بالصلب ، وهو يصيح ، ويضجّ ، ويعلن براءته وأنه لا شأن له بالحكم والصلب ، وإنما كلف حمل العود سخرةً وظلمًا ، وشرطة المشنق لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يفهمون لغته ، لأنهم من الروم ، واليونان الأمة الحاكمة .

٣٢ـ تنفيذ حكم

وكل مجرم يتنصَّل من جريمته ، وكل مجرم له صياح وعويل ، وأخذوه ونفّذوا فيه الحكم ، واليهود واقفين على بعد ، والدنيا ليل وظلام ، وهم يظنون أن المصلوب هو المسيح [١] .

٣٣ـ رفع عيسى إلى السماء

أما سيدنا عيسى ابن مريم فقد نجّاه الله تعالى من كيد اليهود ورفعه إليه مكرمًا مطهرًا من الذين كفروا .

***

(١) استندنا في تفاصيل هذه القصة والملابسات والأجواء التي أحاطت بها إلى الوثائق المسيحية التاريخية والقانونية التي ظهرت ودوِّنت في العصر الأخير .

٣٤ـ القرآن يتحدث عن القصة

وذلك قوله تعالى وهو يتحدث عن اليهود : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٥٦] .

وهو في السماء كما يريده الله تعالى ، وهو القادر على كل شيء ، وقد كانت ولادته عجبًا ، وحياته ، وأمره ، من أوله إلى آخره عجبٌ خارق للعادة مثبت للقدرة الإلهية المطلقة .

٣٥ـ نزول عيسى قبل القيامة

وسينزل من السماء حين يريده الله ، ويقيم الحجة على من فرطوا فيه وأفرطوا من اليهود والنصارى ، وينصر الحق ، ويكبت أهل الباطل ، كما أخبر به نبينا ﷺ ووردت به الأخبار الصحيحة ، والأحاديث المتواترة ، واعتقده المسلمون في كل عصر ، وصدق الله العظيم : ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٥٩] .

٣٦ـ بشارته ببعثة سيدنا محمد ﷺ

ولم يكمل سيدنا المسيح مهمته في الدعوة لشدة محاربة اليهود ، وكيدهم له ، وضعفه وقلة أنصاره ، فودَّع الناس ، وامتثل أمر ربّه ، وبشّر الناس برسول يأتي من بعده يكمل ما بدأه ، ويعمّم ما خصّصه ، وبه تتمّ نعمة الله على عباده ، وتقوم حجته على خلقه : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦] .

٣٧ـ من التوحيد الخالص إلى عقيدة غامضة

ومن غرائب تاريخ الأديان ، ومما تدمع له العيون ، وتذوب لـه القلـوب ، أنه تحولت دعوة المسيح إلى التوحيد الخالص ، والدين السهل السائغ البعيد عن كـل غمـوض وتعقيـد ، وتحريـف وتأويـل بعيـد ، والـدعوة إلى بعيـد ، والدعوة إلى عبادة الله وحده ، والسؤال منه ، والالتجاء إليه ، وحبه الخالص ، إلى عقيدة غامضة ، وفلسفة معقدة ، فغلا فيه أتباعه ، وأطروه إطراءً خـرج بـه من حدود البشرية إلى حدود الألوهية ، فقالوا : « المسيح ابن الله » ، وقـالوا : ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ ، وقالوا : « إن الله هو المسيح ابـن مـريم » ، وجعلـوا مـن الإله الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، أسـرة مؤلفـة مـن ثلاثـة أعـضاء ، كلهم إله ، فقالوا : الأب والابن وروح القدس ، واعتقدوا في مريم أم المـسيح ، وعاملوها بمـا يبلـغ بهـا إلى درجـة التقـديس والعبـادة ، فقـالوا : « أم الله » ، وشاعت لها تماثيل وصور في الكنائس ، يخضع لها النصارى باللجوء والدعاء ، والنذر والانحناء ، وقد قال الله تعالى منكرًا ما اعتقدوه ، مستبشعًا ما فعلوه :

﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة:٧٥] .

***

٣٨ـ عيسى يدعو إلى عبادة الله وحده

وقد دعا كغيره من الأنبياء إلى عبادة الله وحده ، فجاء من قوله في الإنجيل : «مكتوب للرب إلهك تسجد ، وله وحده تعبد» (متى ٤ : ١٠) ، وقوله : « مكتوب للرب إلهك تسجد ، وله وحده تعبد » (لوقا ٤ : ٨) .

وقد قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران:٧٩]

٣٩ـ القرآن يصرح بدعوة عيسى

وقد نقل القرآن ـ وهو الكتاب المصدّق لما بين يديه والمهيمن عليه ـ من إعلان سيدنا عيسى بالتوحيد الخالص والدعوة إليه ، في أسلوب صريح واضح لا مزيد عليه :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة:٧٢] .

***

٤٠ـ منزلة التوحيد في دعوته

وقال في أسلوب جميل بليغ يتذوقه كل من عرف منزلة التوحيد وسيرة الأنبياء والمرسلين ، وما طبعوا عليه من معرفة الله تعالى والخضوع له ، والرهبة منه :

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

[النساء:١٧٢]

٤١ ـ مشهد رائع من مشاهد القيامة

وقد صوَّر القرآن في بلاغته وإعجازه مشهدًا من مشاهد القيامة الرائعة يتبرأ فيه سيدنا عيسى عمَّا تقوّله الناس فيه ، وعاملوه به ، ويوضح دعوته في قوة وصدق ، ويُدين في هذه القضية الغلاة من أمته ، وأنهم هم المسؤولون وحدهم عن هذه الجريمة ، واقرؤوا القرآن ، واستشعروا جلال الموقف وروعة المشهد : ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة:١١٩] .

٤٢ـ من عقيدة غامضة إلى وثنية سافرة

وانتقل دعاة المسيحية إلى أوربا بدافع من عندهم [١] وقد شاعت فيها الوثنية السافرة من زمان ، وغاصت فيها إلى الأذقان ، فكان أهل اليونان وثنيين ، وقد تصوروا صفات الله في شكل آلهة شتى ، نحتوا لها تماثيل ، وبنوا لها معابد وهياكل ، فللرزق إله ، وللرحمة إله ، وللقهر إله ، وكانت رومية عريقة في الوثنية والتمسك بالخرافات ، وقد امتزجت الوثنية بلحمها ودمها ، وجرت منها مجرى الروح والدم ، وكان الرومان يعبدون آلهة شتى ، فلما وصلت إليهم النصرانية ، وَتَنَصَّر قسطنطين الكبير سنة ٣٠٦ واحتضن الدين الجديد ، وتبناه وجعله دين الدولة الرسمي ، بدأت النصرانية تأخذ الشيء الكثير من العقائد الوثنية والتقاليد الرومية والفلسفة اليونانية ، وتدنوا إليها رويدًا ، وصارت تفقد أصالتها النبوية ، وبساطتها الشرقية وحماستها التوحيدية ، ودخل فيها بعض المنافقين ، فطعموها بعقائدهم القديمة ، وذوقهم الوثني ، ونشأ من ذلك دين جديد ، تنجلي فيه النصرانية والوثنية سواءً بسواءٍ .

وكذلك سارت النصرانية الزاحفة الفاتحة على درب غير الدرب الذي سلك المسيح بها عليه ، ودعا إليه ، وكانت كسالك طريق يضلّ عن الطريق ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ في ظلام الليل فيواصل سيره على طريق لا يلتقي بالطريق الأول إلى الأخير .

---

(١) لأن المسيح لم يأمرهم بذلك ، وقد صَرَّحَ بأنه أرسل لخراف إسرائيل الضالة .

ولهذه الحكمة الدقيقة التي لا يعرفها إلا من قرأ تاريخ هذه الديانة ، وصفهم الله بالضلال حين وصف اليهود بالمغضوبية ، فقال على لسان المسلمين : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦] .

وكانت في ذلك مأساة لأوربا ، ومأساة للإنسانية التي قادتها أوربا زمنًا طَوِيْلًا ، ولا تزال مسيطرةً عليها ومتحكمة فيها .

« ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

*****